تصدير الطبعة الأولى

أود أن أبين هنا الكيفية التي ينبغي بها قراءة هذا الكتاب، كيما يمكن فهمه على أتم نحو. إن ما يُراد الإفصاح عنه في هذا الكتاب هو فكرة واحدة. ومع ذلك، فإنني لم أستطع - رغم كل محاولاتني - أن أجد وسيلة أخرى للإفصاح عن تلك الفكرة أكثر اختصارًا من هذا الكتاب. وإنني أرى أن تلك الفكرة هي ما كان يتم البحث عنه منذ زمن طويل تحت اسم الفلسفة؛ ولهذا السبب عينه فإن اكتشاف تلك الفكرة يعد، عند أولئك المحنكين في أمور التاريخ، أمرًا مستحيلًا استحالة اكتشاف حجر الفلاسفة، مع أن بلينيوس Plinius قد قال لهؤلاء من قبل: ما أكثر الأشياء التي تعد مستحيلة إلى أن تتحقق بالفعل؟ **Quam multa fieri non posse, priusquam sint facta, judicantur?** (*Historia naturalist*, 7, 1.)

وما أن ننظر إلى تلك الفكرة من حيث جوانبها المختلفة التي نريد الإفصاح عنها، فإنها سوف تتبدى لنا على أنها ما اصطلاحنا على تسميته بالميتافيزيقا، وما اصطلاحنا على تسميته بعلم الأخلاق، وما اصطلاحنا على تسميته بعلم الجمال، ومن الطبيعي أن تأتي تلك الفكرة مرتبطة تمامًا بهذه المجالات الفلسفية، إن كانت تعبر حقًا عما قصدته منها.

إن النسق الفكري يجب أن يأتي دائمًا مترابطًا و متماسكًا كالبنيان المرصوص، أي مترابطًا على نحو يسند فيه الجزء الواحد جزءًا غيره، رغم أن الجزء اللاحق لا يسند الجزء السابق عليه؛ وعلى نحو يحمل فيه أساس البناء كل الأجزاء دون أن يكون محمولًا عليها، وتكون قمة البناء محمولة دون أن تكون حاملة. وفي مقابل ذلك، فإن الفكرة الواحدة - مهما كانت شاملة - يجب أن تحتفظ بوحدة كاملة تمامًا. ومع ذلك، فلئن أمكن تقسيمها إلى أجزاء بغرض يسر توصيلها، فإن ارتباط هذه الأجزاء يجب أن يكون أيضًا ارتباطًا عضويًا، أعني ارتباطًا من ذلك النوع الذي يسند

فيه كل جزء الكل، تمامًا بقدر ما يكون مسنودًا بهذا الكل، ارتباطًا لا يكون فيه جزء أول وجزء أخير، تكتسب فيه الفكرة ككل وضوحًا من كل جزء فيها، بل إن أصغر جزء فيها لا يمكن فهمه تمامًا حتى يتم فهم الكل أولاً. ولكن أي كتاب يجب أن يكون فيه سطر أول وسطر أخير، ومن هذه الناحية سيبقى دائمًا وأبدًا مغايرًا تمامًا للكيان العضوي، حتى وإن كان مضمونه شبيهًا به. وعلى هذا، فإن الشكل والمادة سيكونان متعارضين في هذا الكتاب.

ومن البديهي في مثل هذه الحالة ألا تكون هناك نصيحة أخرى يمكن أن أوجهها للمرء كي يحيط بالرؤية الفكرية المطروحة في هذا الكتاب، سوى أن أقول له: اقرأ الكتاب مرتين، وقرأه في المرة الأولى بصبر جميل. فينبغي لهذا الصبر أن يكون مستمدًا من اعتقاد، صادر طواعيةً، بأن البداية تفترض النهاية، غالبًا بقدر ما أن النهاية تفترض البداية، وبأن كل جزء سابق إنما يفترض اللاحق غالبًا بقدر ما أن اللاحق يفترض السابق. وأنا أقول "غالبًا"؛ لأن الأمر بالتأكيد ليس على هذا النحو بإطلاق، ولقد فعلت كل ما بوسعي بأمانة وبما يمليه على ضميري، لكي أعطي أولية لما يكون وضوحه أقل احتياجًا لما يكون لاحقًا عليه، مثلما فعلت عمومًا بالنسبة لكل ما من شأنه أن يسهم بأكبر قدر ممكن في إحاطة الفهم والوضوح. وربما يمكن لمساعي هذا أن يحقق بالفعل غايته المرجوة لو لم يكن القارئ - كما هو الحال غالبًا - يفكر أثناء القراءة لا فحسب فيما يُقال له بالفعل في حينه، وإنما أيضًا فيما يمكن أن يترتب عليه من نتائج. وهكذا فإنه بجانب التناقضات العديدة السائدة بالفعل في آراء العصر، وربما في آراء القارئ نفسه، فإنه يمكن أن يُضاف إليها قدر أكبر من التناقضات الأخرى في الآراء المتوقعة والمتخلية. ومن ثم، فإن ما يكون من النص منطويًا على مجرد التباس في الفهم، يصبح عندئذ بالضرورة موضوعًا للرفض الدائم، وتتضاءل حتى إمكانية إدراكه باعتباره موضوعًا ملتبسًا على الأفهام فحسب؛ ذلك أن الجهد الدعوب الذي بذلناه بغية الوضوح والدقة في التعبير، وإن كان من شأنه ألا يدع القارئ أبدًا في حيرة إزاء المعنى المباشر لما يُقال، إلا أنه لا يمكن في نفس الوقت أن يُفصح عن الصلات الكائنة بين ذلك الذي يُقال وما لم يُقَل بعد. ولذلك؛

فإن القراءة الأولى- كما قلت- تتطلب صبرًا مستمدًا من الثقة بأن القراءة الثانية ستجعل جُل أو كل ما يُقال يظهر في ضوء مختلف تمامًا. فضلاً عن ذلك، فإن الرغبة الجادة في فهم أتم، بل في فهم أيسر، لموضوع شديد الصعوبة، لهو أمر يقتضي تكرار المحاولة أحيانًا. والحقيقة أن بنية الموضوع في مجملها- باعتبارها كيانًا عضويًا، لا مجرد سلسلة من موضوعات- هي بنية تقتضي في حد ذاتها الرجوع إلى نفس الموضوع الواحد منها مرتين. وهذا البنيان بما ينطوي عليه من ارتباطات وثيقة للغاية بين كل أجزائه، لم يسمح لي بتقسيم مجمل الكتاب إلى فصول وفقرات، وهو تقسيم عادة ما أقدره كثيرًا، بل اضطرني إلى الاكتفاء بأقسام أربعة رئيسية كما لو كانت وجوه أربعة لفكرة واحدة. وفي كل كتاب من الكتب الأربعة الواردة في هذا العمل، ينبغي علينا أن نحتاط بوجه خاص من أن تجعلنا التفاصيل، التي يلزم دراستها، نغفل عن رؤية الفكرة الرئيسية التي تنتمي إليها هذه التفاصيل، وعن رؤية تطور عرض الفكرة ككل. وبذلك أكون قد أفصحت عن المطلب الأول، أما فيما يلي ذلك فإن هناك مطلبًا ملقى بالضرورة كلية على عاتق القارئ غير المناسب الذي يتخذ موقفًا غير ودي من الفيلسوف لمجرد كونه هو نفسه فيلسوفًا.

أما المطلب الثاني فهو أن المقدمة ينبغي قراءتها قبل قراءة الكتاب ذاته، رغم أنها ليست متضمنة في الكتاب، وإنما ظهرت قبل خمس سنوات خلت بعنوان: عم **Ueber die vierfache Wurzel des Satzes vom zureichenden Grunde: eine philosophische Abhandlung**” (On the Fourfold Root of the Principle of Sufficient Reason: a Philosophical Essay).

فبدون المعرفة بهذه المقدمة، سيكون من المستحيل تمامًا فهم العمل الذي بين أيدينا بدقة، فمضمون هذا المقال يكون مفترضًا هنا في كل موضع كما لو كان متضمنًا في هذا العمل. ومع ذلك، فحتى لو لم يكن ظهور هذا المقال سابقًا على هذا العمل بسنوات عديدة، ما كنا لنضعه في صدره كمقدمة له، بل كنا لندمجه في

الكتاب الأول، حيث إن هذا الكتاب يفتقر إلى ما قيل في ذلك المقال، ويكشف عن نقص ما؛ بسبب تلك الثغرات التي تحتاج إلى أن تمتلئ من خلال الرجوع إلى ذلك المقال. غير أن ما دفعني لاتخاذ هذا المسلك الأخير كراهيتي التامة لأن اقتبس ما سبق أن كتبتة، أو أن أبذل الجهد في التعبير مرة أخرى بكلمات مختلفة عما سبق أن قلته على نحو سديد؛ فهذا يجافي رغبتني، وهو ما يجعلني أفضل هذا المسلك دون أن أتعمد أن أعرض موضوع المقال على نحو أفضل نوعاً ما، لاسيما من خلال تخليصه من المفاهيم العديدة التي نشأت بفعل انشغالي المفرط في ذلك الوقت بالفلسفة الكانطية، من قبيل: المقولات، والحس الخارجي والباطني، وما شابه ذلك. ولكن حتى في هذا المقال نجد أن مثل هذه المفاهيم كانت ترد؛ لأنني لم أكن بعد قد تطرقت حقاً إلى معناها بعمق، وإنما بوصفها مجرد مسألة ثانوية لا ترتبط إلى حد كبير بالموضوع الأساسي. ولهذا السبب؛ فإن تصويب مثل هذه المواضع من المقال سوف يحدث بشكل تلقائي تماماً في ذهن القارئ من خلال معرفته بالعمل الذي بين أيدينا. ولكن إذا أمكننا أن ندرك تماماً من خلال هذا المقال ما طبيعة مبدأ العلة الكافية وما يعنيه، وما المجال الذي يكون سارياً فيه والمجال الذي لا يسري عليه، وأنه ليس سابقاً على كل الأشياء، وأن مجمل العالم يوجد فقط كنتيجة له ووفقاً له، أي كما لو كان لزومه الضروري، وأنه بالأحرى ليس سوى الصورة التي وفقاً لها يصبح الموضوع معروفاً أينما وُجد، طالما كانت هناك ذات هي بمثابة الفرد العارف، أيًا كان نوع هذا الموضوع الذي يكون دائماً مشروطاً بوجود ذات - إذا أمكننا أن ندرك كل هذا، فعندئذ فقط سيكون من الممكن أن نتطرق إلى منهج التفلسف الذي حاولنا إنجازه هنا لأول مرة، والذي يعد مختلفاً تماماً عن كل المناهج السابقة.

ولكن نفس كراهيتي ونفوري من أن أكرر نفسي حرفياً، أو أن أقول نفس الشيء ثانيةً بكلمات مختلفة وغير لائقة بعد أن كنت قد أحكمت صياغته بتعبير أدق - كراهيتي لذلك، كانت السبب في وجود ثغرة أخرى في الكتاب الأول من هذا العمل. إذ أنني قد تخليت هنا عن كل ما يوجد في الفصل الأول من مقالي عن **الأشياء** *Ueber das Sehnen und die Farben* (On Vision and

(Colours)، ولولا ذلك لكنت قد ضمنته هنا حرفياً. ولذلك، فمن المفترض أيضاً هنا المعرفة بذلك العمل المختصر السابق.

وأخيراً، فإن المطلب الثالث الملقى على عاتق القارئ ربما يكون أمراً مسلماً به، حيث إنه لا يقتضي شيئاً آخر سوى المعرفة بأهم ظاهرة قد تجلت في الفلسفة منذ ألفي سنة، وتعد قريبة منّا تماماً: أعني الأعمال الرئيسية لكانط. والحقيقة أنني أرى- كما قلت من قبل في مناسبات أخرى- أن التأثير الذي تحدثه تلك الأعمال في العقل الذي تخاطبه، يشبه كثيراً التأثير الذي تحدثه عملية جراحية لعلاج إنسان أعمى من مرض إعتام عدسة العين. وإن شئنا أن نواصل التشبيه إلى ما هو أبعد من ذلك، فيمكنني أن أصف الهدف من عملي هذا بالقول: إنني قد أردت أن أجعل في متناول أولئك الذين أجريت لهم العملية بنجاح، نظارة ملائمة للعين التي شفي بصرها؛ إذ أن إجراء تلك العملية ذاتها يعد شرطاً ضرورياً تماماً لاستخدامها. ولذلك، فإنني وإن كنت أبدأ أساساً مما أنجزه كانط العظيم، فإن دراستي الجادة لأعماله قد مكنتني مع ذلك من اكتشاف أخطاء هائلة فيها. وكان لزاماً عليّ أن أعزل هذه الأخطاء وأبين دواعي رفضها، كيما يمكنني أن اتخذ وأطبق ما هو حقيقي ومتميز من مذهبه، وقد أصبح نقياً وخالصاً من الأخطاء. ولكن تجنباً لقطع سياق العرض الذي أقدمه وتشويشه باتخاذ موقف نقدي من كانط، فقد أفردت لهذا ملحفاً خاصاً. وتاماً مثلما أن عملي يفترض معرفة بالفلسفة الكانطية، على نحو ما ذكرت، كذلك فإنه يفترض أيضاً معرفة بذلك الملحق. ولذلك فإننا ننصح في هذا الصدد بقراءة الملحق أولاً، حيث إن مادته لها دلالة خاصة بالنسبة للكتاب الأول من العمل الذي بين أيدينا. ومن ناحية أخرى، فإن الملحق بطبيعة الحال لم يكن ليخلو من إحالة هنا أو هناك للنص الأساسي. والنتيجة المترتبة على ذلك ببساطة هي أن الملحق - شأنه شأن متن العمل- يجب قراءته مرتين.

فلسفة كانط إذاً هي الفلسفة الوحيدة التي تكون المعرفة التامة بها أمراً مفترضاً فيما سنقوله هنا. ولكن إذا كان القارئ بالإضافة إلى ذلك قد أمعن النظر حيناً ما في

تعاليم مدرسة أفلاطون المقدس، فإنه سيكون مهيبًا أكثر من غيره لسماع ما أقول واستيعابه. أما إذا كان القارئ قد نال حظًا من صنيع وبركات *قوة الطيبين ملك في خرب* *Veda* * التي كان المدخل إليها من خلال *قوة إلهي لاهاهي ستخ die Upanishaden* ** وهو ما يعد في نظري أعظم إنجاز يمكن أن يتباهى به هذا القرن الشاب الذي لا يزال ناهضًا على غيره من القرون السابقة؛ إذ أنني أعتقد أن أثر الأدب السنسكريتي سوف يتغلغل بعمق لا يقل عن عمق إحياء الأدب اليوناني في القرن الخامس عشر- أقول إذا كان القارئ قد تلقى أيضًا واستوعب تقديس الحكمة الهندية القديمة وتقبلها، فإنه سيكون أفضل شخص مهيبًا لأن يسمع ما سأقوله له. فعملي عندئذ لن يتحدث إليه- مثلما يتحدث بالنسبة لبعض الهنود- بلسان غريب عليه وربما عدائي بالنسبة له؛ إذ أنني بمقدوري التأكيد- ما لم يتبد في ذلك كثير من الزهو- على أن كل حكمة بمفردها وعلى حدة من مجمل الحكم التي تتألف منها *قوة إلهي لاهاهي ستخ* يمكن استخلاصها كنتيجة من الفكر الذي أود الإفصاح عنه هنا، بينما العكس غير صحيح على الإطلاق، وهو القول بأن فكري الوارد هنا يمكن التماسه في *قوة إلهي لاهاهي ستخ*.

ولكن معظم القراء ربما نفذ صبرهم وانطوت مشاعرهم على حالة من السخط إزاء تلك الصعوبات التي تنتظرهم. إذ كيف لي أن أتجرأ على طرح كتاب لعامة الناس وفقًا لمتطلبات وشروط ينطوي الشرطان الأولان منها على قدر كبير من العجرفة وعدم التواضع، في الوقت الذي انتشر فيه باستفاضة في ألمانيا وحدها كثير من الأفكار الخاصة المتميزة من خلال النشر السنوي لثلاثة آلاف من الأعمال الخصبة الأصيلة التي لا يمكن الاستغناء عنها أبدًا، ومن خلال الدوريات التي لا تحصى، بل الصحف اليومية أيضًا؛ وفي الوقت الذي لا يوجد فيه أدنى نقص في الفلاسفة الذين

* أقدم الكتب الهندية المقدسة، وتقع في أربعة كتب باللغة السنسكريتية القديمة.

** مجموعة الكتابات الفلسفية في مجال العقيدة والحكمة الهندية القديمة، وتتضمن شرحًا لكتب الفيذا المقدسة.

يتميزون تمامًا بالأصالة والعمق، بل يوجد في ألمانيا وحدها العديد منهم يعيشون معًا بصورة متزامنة لا نجد لها مثيلاً في القرون المتعاقبة. كيف يتسنى للمرء- هكذا يتساءل القارئ الساخط- أن يبلغ النهاية إذا كان الواجب عليه منذ البداية أن يعكف على كتاب فيه هذا القدر من التعقيد والصعوبات؟

وفي حين أنني ليس لدى شيء أقوله دفعًا لهذه الاتهامات، فإنني آمل فقط أن يكنَّ لي هؤلاء القراء الساخون شيئًا من الشكر والامتنان؛ لأنني قد حذرتهم في الوقت المناسب حتى لا يضيعوا ساعة واحدة في قراءة كتاب سيكون عديم الجدوى ولا طائل من ورائه بالنسبة لهم، ما لم يلتزموا بالمتطلبات التي اشترطتها؛ ومن ثم فأولي بهم أن يدعوا هذا الكتاب وشأنه، خاصةً أنني لأسباب أخرى يمكن أن أراهن إلى حد كبير على أن هذا الكتاب لا يمكن أن يقول شيئًا لمثل هؤلاء القراء، في حين أنه على العكس من ذلك سيكون دائماً أشبه بإنسان صامت **paucorum hominum**؛ ومن ثم فإنه لا يجد مناصاً من أن ينتظر في هدوء وحياء تلك القلة التي يمكن أن تجد متعة في قراءته بسبب طريقتها غير المعتادة في التفكير. ذلك أنه بمنأى عن تعقيدات الكتاب وصعوباته والجهد الذي يتطلبه، يمكننا أن نتساءل: ما الذي يجعل مثقف هذا العصر- الذي بلغت معرفته حدًا لم يعد يميز فيه بين ما هو خاطئ وما هو متناقض ظاهريًا- ما الذي يجعل هذا المثقف قادرًا على أن يواجه في كل صفحة تقريبًا أفكارًا تتناقض بشكل مباشر مع ما استقر عليه باعتباره صادقًا وراسخًا بشكل نهائي؟ وكم من إنسان سوف يلقي إحباطاً على غير المتوقع عندما لا يجد في هذا الكتاب شيئًا مما كان يظن أنه واجده حتمًا، بسبب أن طريقتة في التأمل تطابق طريقة فيلسوف كبير لازال حيًا¹. لقد كتب هذا الفيلسوف كتابات شجية حقًا، ونقطة ضعفه الصغيرة هي أنه ينظر إلى كل ما تعلمه وأثبتته قبل أن يبلغ سن الخامسة عشرة باعتباره أفكارًا أساسية فطرية في الذهن البشري. من هو القارئ الذي يمكن أن

¹ ياكوبي F.H. Jacobi

يحتمل كل هذا؟ ولذلك، فإن نصيحتي لمثل هذا القارئ هي أن يدع هذا الكتاب جانباً.

غير أنني أخشى ألا أسلم من اللوم مع ذلك. فالقارئ الذي أسرف على نفسه بقراءة هذا التصدير ليدع الكتاب جانباً بعد ذلك، قد أنفق مبلغاً من المال في شراء هذا الكتاب، وهو يريد أن يعرف كيف يمكن تعويضه عما أنفقه. ولا أجد الآن مهرباً أخيراً أسلم فيه من هذا القارئ، سوى أن أذكره بأنه يعرف ما هنالك من أساليب عديدة للانتفاع بكتاب بطريقة ما دون قراءته على وجه الدقة. فهو يمكن أن يملأ- شأنه شأن غيره من الكتب- حيزاً فارغاً في أرفف مكتبته، حيث سيبدو مظهره جيداً بما له من تجليد أنيق. أو يمكن للقارئ أن يضعه فوق مِزينة غرفة النوم أو منضدة الشاي الخاصة برفيقته المثقفة. أو يمكنه أخيراً أن يقدم عرضاً نقدياً له، وتلك أفضل الأساليب التي يمكن إتباعها والتي أنصح بها بوجه خاص.

والآن بعد أن سمحت لنفسني بذلك المزاح الذي من العسير أن يجد له مكاناً في أي صفحة من الصفحات الجادة لتلك الحياة المليئة بتناقض المعنى، فإني أطرح كتابي بكل جد عميق، واثقاً من أنه عاجلاً أم آجلاً سوف يصل إلى أولئك الذين يعد موجهاً في الأصل لهم دون غيرهم، والذين سوف يستجيبون له في هدوء، وبأنه سيلقى نفس القدر من المصير الذي تلقاه الحقيقة، وخاصة تلك الحقيقة لا يتاح لها الاحتفاء بانتصارها إلا لفترة وجيزة تقع بين فترين طويلتين: إما أن تلقى الحقيقة فيهما استتكاراً باعتبارها أمراً متناقضاً في ظاهره أو استخفافاً باعتبارها أمراً تافهاً. والمؤلف الذي يقول الحقيقة عادة ما يلقي المصير الأول. لكن الحياة قصيرة، والحقيقة لها تأثير بعيد وعمر مديد: فلنقل الحقيقة.

درسدن، أغسطس ١٨١٨

تصدير الطبعة الثانية

إنني أخصص عملي المكتمل هذا، لا للمعاصرين لي، ولا لأهل بلدي، وإنما للبشرية، واثقاً من أنه لن يخلو من قيمة بالنسبة للإنسانية، حتى وإن كان إدراك تلك القيمة يأتي على مهل، كما هو القدر المحتوم عمومًا لكل ما هو خير، فما كان لهذا العمل أن يُخصَّص سوى للبشرية، وليس للجيل العابر الذي يكون مستغرقاً في وهم اللحظة الراهنة، ذلك الوهم الذي كان عقلي يترصده دون أن تتعلق به إرادتي غالباً، ودون تشويش، عبر حياة طويلة. ومع أن الزمن قد ولّى، فإن قلة التعاطف مع عملي هذا لم تكن حتى قادرة على أن تهز إيماني بقيمته. ولقد رأيت على الدوام أن ما هو خاطئ وسيئ وما هو عبثي وبلا معنى في النهاية^٢، يلقي إعجاباً عامّاً وتكريماً، فحدثت نفسي مذكراً إياها بأنه لو لم يكن الأمر على هذا النحو الذي يندر فيه تماماً أولئك القادرون على إدراك ما هو أصيل وصائب، حتى إننا أمضينا قرابة عشرين عامّاً نتشوف إليهم؛ ما كان القادرون على إنتاج الأصيل والصائب على هذا النحو من القلة، حتى إن أعمالهم لتشكل بعد ذلك استثناءً بالنسبة للأمور الدنيوية الزائلة. وعلى هذا النحو، فإن تشوف البهجة التي يمكن أن تبعثها موازنة الأجيال القادمة سوف يذهب أدراج الرياح؛ تلك الموازنة التي يحتاج إليها كل امرئ يكرس نفسه لأهداف سامية كي تقوي عزيمته. ولكن من يأخذ مأخذ الجد موضوعاً لا يبتغي من ورائه مصلحة مادية، لا ينبغي له أن يعوّل على أن يلقي تعاطفاً من معاصريه. وهو غالباً ما سيرى في نفس الوقت أن المظهر السطحي لمثل هذا الموضوع، هو الذي يلقي رواجاً وينعم بازدهاره الوقتي، وذلك من طبائع الأمور. أن الموضوع ذاته هنا يجب السعي في طلبه لذاته، وإلا ما أمكن إدراكه؛ لأن كل غرض وقصد من وراء شيء ما يكون دائماً خطراً على البصيرة. ومن ثم- وكما تشهد بذلك الأدبيات- فإن كل شيء ذي قيمة يحتاج وقتاً طويلاً لينال مشروعيته، خاصة إذا كان تنويرياً وليس من ذلك النوع الذي يُكتب بغرض التسلية، بينما الأعمال الزائفة تلقى ازدهاراً. فمن

^٢ الفلسفة الهيجيلية.

العسير، إن لم يكن من المستحيل، الجمع في وقت واحد بين الموضوع الجاد والمظهر السطحي في تناول هذا الموضوع. ولكن هذا في واقع الأمر هو بعينه أصل بلاء هذا العالم الذي يقوم على الحاجة والرغبة، حتى إن كل شيء يكون في خدمتهما ويذعن لهما. ولذلك فليس من المشروع تمامًا بالنسبة للجهد السامي - من قبيل ذلك الجهد الذي يسعى لكشف الحقيقة وتتوير البصيرة - أن يتمكن من الازدهار في هذا العالم بلا عوائق، وأن يوجد لأجل ذاته. ولكن حتى ما أن يصبح هذا الجهد قادرًا على تأكيد ذاته ويمكن إدراك فكرته في ذاتها، فإن المصالح المادية والاهتمامات الشخصية سرعان ما تستولي عليه لتجعله أداة أو قناعًا لها. ولهذا نجد أنه بعدما جلبت جهود كانط للفلسفة سمعتها الحسنة مرة أخرى، سرعان ما أصبحت الفلسفة أداة للأغراض الخاصة بالدولة من أعلى، وأداة للأغراض الشخصية من أدنى، مع أننا إذا شئنا الدقة لقلنا: ليست الفلسفة وإنما ممثلها البديل هو الذي يقوم بأداء هذا الدور. ولا ينبغي لهذا أن يثير حتى دهشتنا؛ لأن الغالبية العظمى من البشر التي تفوق الحسبان تكون بطبيعتها غير قادرة على أن تتقبل سوى الأغراض المادية، بل إنها حتى لا تستطيع أن تفهم أغراضًا أخرى غيرها. وعلى هذا، فإن السعي في طلب الحقيقة وحدها إنما هو جهد بالغ السمو بعيد المنال، بحيث لا يحق لنا أن نتوقع أن يشارك فيه بإخلاص كل أو أكثر الناس، أو حتى مجرد قلة منهم. غير أننا إذا ما رأينا - على نحو ما نرى في ألمانيا على سبيل المثال في اللحظة الراهنة - نشاطًا ملحوظًا، وسيلاً عامًا من الكتابة والكلام عن موضوعات فلسفية، فإننا عندئذ قد نسلم في يقين - رغم كل تعابير الاحتفاء والتعهدات - بأن الدافع الأول **primum mobile** الحقيقي، الدافع الفعلي لمثل هذه الحركة، ليس أهدافًا مثالية، وإنما أهداف شخصية ورسمية وكَنَسِيَّة وسياسية، وباختصار المصالح المادية التي تبقى هنا محل الاعتبار؛ ومن ثم فإن الغايات الحزبية فحسب هي ما يحرك على هذا النحو من الهمة والنشاط أقلام مدعي الحكمة. وهكذا فإن الأغراض لا العقل هي النجم الدليل الذي يقود مسلك هؤلاء المزعجين، ومن المؤكد أن الحقيقة هي آخر ما يفكرون فيه في هذا السياق. فهي لا تجد أنصارًا لها، وإنما على العكس من ذلك تسلك سبيلها صامتة شاردة عبر

ذلك الجدل والصخب الفلسفي، تمامًا مثلما كان حالها في الليل الشتوي لأحلك قرن من القرون التي ارتبطت بالاعتقاد الأشد تصلبًا في السلطة الكنسية، حينما كان يتم تبليغها فقط بوصفها تعاليم سرية مقصورة على قلة من الخبراء، أو حتى يتم إيداعها فقط في الأوراق الجلدية النفيسة. والحقيقة أنني يمكنني القول إنه ليس هناك عصر يجافى الفلسفة أكثر من ذلك العصر الذي يُساء فيه استخدامها على نحو مخز كوسيلة سياسية من ناحية، وكوسيلة للارتزاق من ناحية أخرى. أويحق لنا يا ترى أن نظن أن الحقيقة يمكن أن تستبين مع مثل هذا السعي والصخب الذي تبدو فيه الحقيقة متحيرة جانبًا ولا يُلتفت إليها؟ إن الحقيقة ليست مومسًا تطوق بذراعيها عنق ذلك الذي لا يرغب فيها، بل إنها على العكس من ذلك جمال امرأة رقيقة شديدة الحياء، حتى إن الرجل الذي يضحى بكل شيء من أجلها لا يكون متيقنًا من أنه يحق له الاطلاع على مفاتها.

ومن ثم، فإذا كانت الحكومات تجعل من الفلسفة وسيلة لأهدافها السياسية، فإن طالبي العلم سوف ينظرون إلى مناصب الأستاذية في الفلسفة باعتبارها حرفة تكفل للرجل قوت يومه، تمامًا مثل غيرها من المناصب الأخرى. ولذلك فإن هذه الحكومات تحشدهم مع تأكيدها لحسن نواياها، أي أنها تدفعهم إلى خدمة أهدافها. وهم يحفظون عهدهم: فلا يحافظون على الحقيقة ولا الوضوح ولا أفلاطون أو أرسطو، وإنما يحافظون على الأغراض والأهداف التي كانوا موجهين لخدمتها بوصفها نجمهم الدليل الذي يقود مسارهم، وهي أغراض وأهداف تصبح على الفور معيارًا لما يكون صائبًا وقيمًا وجديرًا بالاعتبار، ولما يكون على الضد من ذلك أيضًا. ولذلك، فإن كل ما لا يتماشى مع هذه الأغراض - حتى وإن كان هو الأهم والأكثر امتيازًا في مادة تخصصهم - فإنه إما أن يتم وأده، أو خنقه بالإجماع على تجاهله إن كان مثيرًا للجدل. وحسبك أن تتظر إلى سخطهم المتآمر على مذهب وحدة الوجود: فهل يمكن لأي ساذج أن يظن أن سخطهم هذا ناجم عن اقتناع؟ وكيف يمكن بوجه عام للفلسفة التي انحطت لتصبح وسيلة للارتزاق أو كسب القوت، ألا تنحدر إلى مستوى السفسطة؟ وبالضبط لأن حدوث هذا الأمر هو الحال السائد، ولأن القاعدة القائلة:

"إنني أغني أغنية من أكل خبزه" كانت سارية عبر كل العصور؛ كان الارتزاق بواسطة الفلسفة عند القدماء هو شيمة السفطائي. هذا بالإضافة إلى أنه في كل مكان من هذا العالم لا يوجد هناك شيء يكون متوقعًا أو مطلوبًا أو يتم نيله لأجل تحصيل المال، إلا وكان مستواه متوسطًا، وهو ما ينبغي أن نضعه أيضًا في اعتبارنا هنا. ومن ثم، فإننا نرى في كل الجامعات الألمانية المواهب متوسطة المستوى تجهد نفسها لكي تنتج وفقًا لوسائلها الخاصة- بل تنتج في الحقيقة وفقًا لمعيار وهدف محددين سلفًا- الفلسفة التي لا أثر لوجودها حتى الآن؛ وهذا مشهد سيكون من القسوة أن نسخر منه.

وبينما ظلت الفلسفة طويلًا مرغمة على أن تُستخدَم كوسيلة على هذا النحو لخدمة أهداف عامة من ناحية، وأهداف خاصة من ناحية أخرى، فإنني قد ظلت هادئًا وسلكت سبيلي الفكري غير عابئ بهذا الأمر طوال ما يزيد على ثلاثين سنة. ولقد فعلت هذا ببساطة لأنني كنت مرغمة على فعل ذلك- ولم يكن بمقدوري أن أفعل سوى ذلك- بدافع فطري، وإن كان مدعومًا بإيمان بأن أي شيء حقيقي يفكر فيه إنسان، أي شيء خفي قد أضاعه إنسان يومًا ما، لا بد أن يدركه يومًا إنسان ما آخر، فهو يخاطبه ويفرحه ويجد فيه سلوى. ولمثل هذا الإنسان نتحدث، تمامًا مثلما تحدث إلينا أولئك الذين يشبهوننا، وكانوا بذلك سلوى لنا في جذب هذه الحياة. إن الانشغال بقضية ما إنما يكون من أجلها ولذاتها. غير أنه من عجائب الأمور فيما يتعلق بالتأملات الفلسفية أن ما يفكر فيه ويبحثه إنسان ما لنفسه- وليس ما يكون مقررًا مسبقًا لأجل الآخرين- هو ما يكون بعد ذلك ذا نفع للآخرين. فمن اللافت للنظر أن البحث الأول يكون هو الأقرب في طبيعته للأمانة التامة؛ لأن المرء في هذه الحالة لا يحاول أن يخدع نفسه أو يهدي نفسه لحاء بلا ثمرة. وعلى هذا النحو، فإن كل أشكال السفطة الجوفاء يتم استبعادها هنا، ومن ثم فإن كل مقطع يُكتب يكون تعويضًا فورًا عن عناء القراءة. وبالتالي فإن كتابتي يرتسم على مَحْيَاها في وضوح طابع الأمانة والصراحة، حتى إنهاء لتمتاز بشكل ساطع على كتابات السوفسطائيين المشهورين الثلاثة في الفترة التالية لكانط. إن المرء ليجدني دائمًا في جانب التأمل،

أعني في جانب أعمال الفكر العقلاني والقول الأمين، ولن يجدني أبداً في جانب الإلهام الذي يسمى بالحدس العقلاني أو حتى بالفكر المطلق، والاسمين الصحيحين لهما هما الدجل والشعوذة. ولأنني في الوقت الذي أعمل فيه بتلك الروح أرى على الدوام أن الزائف والرديء بوجه عام هو الذي يلقي قبولاً، بل في واقع الأمر أرى الدجل^٣ والشعوذة^٤ يلقيان أسمى آيات الإعجاب، لذلك فقد تخلّيت منذ زمن طويل عن توقع استحسان وإعجاب من المعاصرين لي. فمن المستحيل على المعاصرين الذين راحوا يمجّدون بصوت عال هيجل- ذلك المنحط عقلاً- باعتباره أعظم الفلاسفة، حتى إن أصداء هذا الصراخ كانت تُسمع في أوروبا كلها؛ من المستحيل على عصر كهذا أن يقدر الرجل الذي طالما تشوّف إلى استحسان ذلك العصر. فلم يعد لدى هذا العصر أية أكاليل غار كي يمنحها؛ فاستحسانه أصبح داعراً، واستهجانته لم يعد يعني شيئاً. وأنا أعني ما أقوله هنا، وهو ما يتضح من أنني لو كنت متطلعاً بأية حال لأن ألقى استحساناً من المعاصرين لي، لكنت قد حذفته عشرين فقرة تتناقض كلية مع رؤاهم، بل إنها في حقيقة الأمر- في جانب منها- تسيء إليهم. ولكنني من جانبي اعتبر أن التضحية بلفظ واحد لأجل هذا الاستحسان، إنما هو من قبيل الإبادة. فلقد كانت الحقيقة هي نجمي الدليل الذي أتبعه بمنتهى الجدية. وباتباعي نجمي الدليل أمكنني أن أتطلع في المقام الأول إلى استحساني الخاص فحسب، مؤلياً وجهي عن عصر قد أصبح متدنياً بالنسبة لكل الجهود العقلانية السامية، وعن أدبيات قومية مفسدة للأخلاق والروح، أدبيات بلغ فيها فن الجمع بين الكلمات الطنّانة والخُلُق الوضيع أقصى ذروته. ولا شك أنني لا أستطيع أن أكون أبداً بمنأى عن الأخطاء والضعف الذي يكون متأصلاً في طبيعتي مثلما هو متأصل في طبيعة أي شخص آخر، ولكنني لا أزيد من هذه الأخطاء والنقائص بأن أهين لها الأسباب التافهة.

^٣ فيشته Fichte وشيلنج Schelling.

^٤ هيجل Hegel.

أما بخصوص هذه الطبعة الثانية، فإن من دواعي سعادتي في المقام الأول أنني بعد مرور خمس وعشرين سنة لم أجد شيئاً يمكن أن أترجع عنه، فلقد ترسخت قناعاتي الأساسية، وهي تلك التي تشغل على الأقل اهتماماتي الخاصة. ومن ثم، فإن التعديلات في المجلد الأول- الذي ينطوي على مجمل نص الطبعة الأولى- هي تعديلات لا تمس ما هو جوهري في أي موضع من المواضيع، وإنما تتعلق بأمور جانبية، ولكنها في معظمها توضيحية ومقتضبة تم إدراجها في شكل إضافات هنا أو هناك. أما نقدي لفلسفة كانط فهو وحده الذي أجريت عليه تصويبات هامة وإضافات مطوّلة، ولأن هذه التعديلات لم تكن لتوضع في كتاب ملحق على غرار تلك الملاحق الواردة في المجلد الثاني كشرح إضافية على أربعة كتب تمثل تعاليمي الخاصة؛ فقد اخترت فيما يتعلق بتلك الكتب ذلك الشكل الأخير الموسع والمنقح، حيث إن السنوات الخمس وعشرين التي انقضت منذ كتابتها قد أحدثت تغييراً ملحوظاً في طريقة العرض وفي نبرته، بحيث لا تبدو محتويات المجلد الثاني منصهرة في محتويات المجلد الأول ، وهو الانصهار الذي ربما عانى منه كلا المجلدين. ولذلك، فإنني أقدم كلا العملين منفصلين، ولكنني لم أغير شيئاً من قناعاتي سواء في العرض الأول، أو حتى في تلك المواضيع العديدة التي أعبّر الآن فيها عن نفسي بصورة مختلفة تماماً. ولقد فعلت هذا لأنني لم أشأ أن أفسد عمل فترة الشباب بتقريع الشيخوخة الذي لا داعي له. وما قد يحتاج إلى تصويبات فسوف يصحح نفسه تلقائياً في ذهن القارئ بمعونة المجلد الثاني. وكلا المجلدين يرتبطان بعضهما ببعض من خلال علاقة تكامل بالمعنى الأتم لهذه الكلمة، مادام أن الفترة الواحدة من العمر في حياة المرء تكون- من الناحية العقلية- متكاملة مع فترة أخرى. ولذلك فسوف نجد أن كل مجلد ليس فحسب يشتمل على ما لا يشتمل عليه المجلد الآخر، وإنما سنجد أيضاً أن مزايا المجلد الواحد تكمن على وجه التحديد فيما يفتقر إليه المجلد الآخر. وهكذا فإنه إذا كان النصف الأول من عملي يمتاز على النصف الثاني فيما يمكن أن يكون مدفوعاً فحسب بتوهج مرحلة الشباب وفورة التصورات الأولى، فإن النصف الثاني سيتجاوز النصف الأول بنمات نضج أفكاره وكمال تناولها، وهو أمر لا يتأتى إلا كثمرة لحياة طويلة وحافلة

بالاجتهاد. فعندما أصبحت لي القدرة ابتداءً على إدراك الفكرة الأساسية لمذهبي، ومتابعتها في فروعها الأربعة*، والعودة من هذا كله إلى وحدة الجذع الذي يربطها، ثم تقديم عرض واضح للكل، كنت عندئذ في وضع يقتضي العمل على تنفيذ كل أجزاء المذهب على ذلك النحو من الاكتمال والدقة والاستفاضة الذي لا يتأتى إلا عبر سنوات طويلة من التأمل فيه. فمثل هذا التأمل يكون مطلوبًا لاختبار وشرح المذهب من خلال وقائع لا تحصى، ولتدعيمه بالبراهين الأكثر تنوعًا في طبيعتها، ولإلقاء ضوء واضح عليه من كل الجوانب، ولمواجهة وجهات النظر المتنافرة بعضها ببعض في نوع من الجراءة، وللفصل بين الحشد الهائل من المادة العلمية بوضوح، وتقديمها في ترتيب نسقي. ولذلك فإن كان من الأفضل بالتأكيد بالنسبة للقارئ أن يجد مجمل عملي متكاملًا بدلاً من أن يجده على حالته الراهنة مشطورًا إلى نصفين ينبغي الربط بينهما معًا عند النظر فيهما، فعلى القارئ أن يدرك أن هذا الأمر كان سيتطلب أن أنجز في عمر واحد ما لا يمكن إنجازه إلا في عمريين؛ إذ أن تحقيق ذلك يتطلب أن أحوز في فترة واحدة من حياتي تلك الصفات التي قسمتها الطبيعة على فترتين من العمر مختلفتين تمامًا. ومن ثم، فإن الحاجة إلى تقديم عملي في جزأين يكملان بعضهما بعضًا يمكن مقارنتها بالحاجة إلى صنع عدسة شبيئية كاسرة للضوء؛ إذ لا يمكن صنعها من قطعة واحدة، وإنما يتم تركيبها من عدستين : عدسة محدبة من زجاج شديد النقاء، وعدسة مقعرة من زجاج صخري صلب، فالتأثير المشترك لكليهما يحقق المراد. ومن ناحية أخرى، فإن القارئ سوف يجد تعويضًا ما عن الإزعاج الذي يسببه استخدامه مجلدين في نفس الوقت، يتمثل في التنوع والارتياح الذين ينتجان عن معالجة نفس الموضوع من خلال نفس العقل، وبنفس الروح، وإن كان عبر سنوات مختلفة تمامًا. ومع ذلك، فمن المستحسن عمومًا بالنسبة للقارئ الذي ليست له بعد معرفة بفلسفتي، أن يطالع أولاً المجلد الأول دون أن يُستدرج إلى قراءة ملاحق الكتاب، أو يلجأ إلى ذلك أثناء قراءته الثانية للكتاب؛ وإلا فإنه سيكون من العسير تمامًا عليه أن يدرك المذهب في اتساقه، إذ أن المذهب في حد ذاته

* يشير شوبنهاور هنا إلى الكتب الأربعة التي يتألف منها المجلد الأول، والتي يعقب عليها في المجلد الثاني.

مطروح في المجلد الأول، في حين أن المجلد الثاني مكرس للنظريات الأساسية التي تم تأسيسها كل على حدة بتفصيل أكبر، وتم تطويرها بشكل تام. وحتى بالنسبة للقارئ الذي ربما لا يكون عازماً على قراءة ثانية للمجلد الأول، سوف يجد أنه من الأفضل له أن يطالع المجلد الثاني بذاته فقط بعد قراءة المجلد الأول. ويمكنه أن يشرع في ذلك وفقاً للتسلسل المقرر لفصول المجلد الثاني التي وإن كان بينها ارتباط ما، إلا أنه ارتباط غير محكم، وسوف تمتلئ الفجوات الكائنة بين هذه الفصول باسترجاع المجلد الأول إذا ما كان القارئ قد فهمه تمامًا. وفضلاً عن ذلك، فإن القارئ سوف يجد في سائر المجلد الثاني إحالات إلى الفقرات المناظرة في المجلد الأول. ولهذا الغرض، فلقد زودت الطبعة الثانية من المجلد الأول بترقيم فقراته التي جاءت في الطبعة الأولى مقسمة من خلال فواصل فحسب.

لقد بينت في تصدير الطبعة الأولى أن فلسفتي تنطلق من فلسفة كانط؛ ولذلك فإنها تفترض معرفة تامة بها، وأنا أكرر هذا الأمر هنا. ذلك أن تعاليم كانط تحدث تغييراً أساسياً في كل عقل أدركها. وهذا التغيير يكون هائلاً بحيث يمكن اعتباره ميلاداً عقلياً جديداً. فهذه التعاليم وحدها هي القادرة بالفعل على إقصاء النزعة الواقعية الفطرية التي نشأت من قبل عن العقل. فلا بركلي Berkeley ولا مالبرانش Malebranche بكافيين في هذا الصدد؛ لأن هذين الرجلين قد استغرقا في العام، بينما انخرط كانط في الخاص، وهو يسلك سبيله هذا بطريقة لا تُضاهى سواء عند السابقين أو اللاحقين عليه، طريقة لها تأثير خاص تماماً - نكاد نقول أنها طريقة لها تأثير مباشر - على العقل. ويترتب على هذا أن العقل يتحرر جذرياً من الأوهام، وعندئذ ينظر إلى الأشياء في ضوء آخر. ولكن فقط بهذه الطريقة يصبح العقل قادراً بالفعل على تقبل الأطروحات الأكثر إيجابية التي سأقدمها. ومن ناحية أخرى، فإن المرء الذي لم يستوعب تماماً الفلسفة الكانطية - مهما كان الذي درسه من فلسفات آخر - يكون في حالة من السذاجة، فهو بعبارة أخرى يظل واقعاً في أسر النزعة الواقعية الطبيعية والطفولية التي نولد عليها جميعاً، وهي النزعة التي يمكن أن تجعل المرء مؤهلاً لأي شيء إلا الفلسفة. ومن ثم فإن مثل هذا المرء يكون مقامه بالنسبة

للمرء الذي يعرف الفلسفة الكانطية، أشبه بمقام القاصر بالنسبة للوصي عليه. وإذا كانت هذه الحقيقة تبدو في أيامنا هذه متناقضة، وهو ما لم يكن عليه الحال مطلقاً خلال الثلاثين سنة الأولى التالية على ظهور كتاب *Vernunftkritik* **نقد العقل** (*Critique of Reason*)؛ فمرد ذلك أن هناك جيلاً قد نشأ بعد ذلك لا يعرف كانط حق المعرفة، جيل لم يعرف شيئاً سوى أن يطالع كانط في عجالة وتامل، أو يستمع لتوصيف له يعتمد على الكلام الشائع عنه؛ ومرد ذلك أيضاً أن هذا الجيل قد لقي من سوء التوجيه ما جعله يهدر وقته في متابعة أقاويل فلسفية نابعة من عقول رديئة، أو حتى صادرة عن المتفسطة الذين تم الترويج لهم عند القراء بطريقة غير مسؤولة. ومن ثم، فإن المحاولات الفلسفية التي يضطلع بها هذا الجيل يحدث فيها الخلط في المفاهيم الأساسية، وتظهر فيها بوجه عام الفجاجة والرداءة التي تند عن الوصف، والتي تظل من جراب الإعجاب والادعاءات الخاصة بالمحاولات الفلسفية التي تتلمذوا عليها. ولكن من يظن نفسه قادراً على أن يتعرف على فلسفة كانط من خلال توصيفات الآخرين له، إنما يرتكب خطأ شنيعاً. كلا، بل إنني بخلاف ذلك يجب أن أحذر جدياً من ذلك النوع من التوصيفات، خاصة تلك التوصيفات حديثة العهد. فالواقع أنني في السنوات الأخيرة قد صادفت في كتابات الهيجليين توصيفات للفلسفة الكانطية لا تُعقل. إذ كيف يمكن لعقول تم تخريبها وإجهادها في باكورة الشباب بفعل لغو الهيجلية، أن تظل قادرة على متابعة بحوث كانط العميقة؟ فلقد اعتاد هؤلاء منذ مرحلة مبكرة النظر إلى أكثر أنواع الكلام إسفاً وخواءً على أنه أفكار فلسفية، وإلى أكثر أنواع السفسطة بؤساً على أنه حصافة، وإلى الخبل الأحمق على أنه جدل، ولقد أصبحت عقولهم مضطربة نتيجة لقبولهم تراكيب لفظية متعجلة يُعذَّب بها العقل نفسه ويجهدونها دون جدوى، على نحو تصبح فيه عقولهم في حالة من الفوضى. إنهم ليسوا بحاجة إلى أي "تقد للعقل" ولا إلى أية فلسفة، فهم يحتاجون إلى "دواء للعقل" يبدأ بغسول مطهر، أي بجرعة علاجية قصيرة في الحس المشترك un petit cours de senscommunologie، ثم على المرء أن ينظر بعد ذلك فيما إذا كان لهؤلاء في أي وقت كان أي شأن بالفلسفة. وهكذا، فإنه لا جدوى من

التماس مذهب كانط في أي موضع آخر سوى أعماله ذاتها، غير أن هذه الأعمال تنويرية في كل موضع منها حتى عندما يخطئ أو يخفق. ونظرًا لأصالته هذه، فإنه يصدق عليه تمامًا ما يصدق في واقع الأمر على كل الفلاسفة الحقيقيين، وهو أن المرء لا يمكن أن يتعرف عليهم إلا من خلال أعمالهم ذاتها، لا من خلال كتابات الآخرين عنهم. إذ أن أفكار تلك العقول الخارقة لا يمكن أن تأتي إلينا صافية عبر دماغ عادي. فحيث إن مثل هذه الأفكار تولد خلف جبين عريض شامخ رقيق الانحناء في تقوسه، تسطع من تحته عينان مشعتان؛ فإنها تفقد طاقتها وحيويتها ولا تصبح قادرة على أن تتجلى على حقيقتها عندما تنتقل إلى المأوى الضيق المنخفض سقفه، الذي يخص تلك الجماجم المنغلقة المكتنزة كثيفة الجدران، والتي تطل منها نظرات بليدة متجهة نحو أغراض شخصية. ويمكننا القول في واقع الأمر إن الأدمغة من ذلك النوع تشبه مرآيا غير مستوية يظهر كل شيء فيها ملتويًا ومشوهًا، مفتقدًا التناسب الجمالي بين أجزائه، ليتمثل لنا في هيئة مسخ. فالأفكار الفلسفية يمكن أن نتلقاها فقط من العقول التي أبدعتها. ومن هنا، فإن المرء الذي يجد نفسه مشدودًا إلى الفلسفة، يجب أن يجتهد في البحث عن معلمها خالدي الذكر في محراب أعمالهم الهادئ. فالفصول الرئيسية في كتابات أي من هؤلاء الفلاسفة الحقيقيين سوف تشكل رؤية نافذة لمذاهبهم تفوق مائة مرة ما يمكن أن يستمد من العروض الممطوطة والمشوهة لتلك المذاهب، التي تنتجها العقول العادية والتي ما زالت في معظمها واقعة في شرك الفلسفة الرائجة الآن، أو في شرك استهوائاتها الخاصة. ولكن ما يدعو إلى الدهشة أن الناس يصممون على التمسك بتلك العروض غير المباشرة. والواقع أن نوعًا من الانتخاب الطبيعي يمارس فيما يبدو تأثيره هنا، وبفضله تتجذب الطبيعة الغالبة على المرء إلى ما يشبهها. ومن ثم فإنه يفضل أن يستمع إلى امرئ يشبهه في طبيعته، غير عابئ بما يقوله مفكر عظيم. وربما يستند هذا إلى نفس المبدأ الذي يستند إليه نظام التعليم التبادلي الذي بمقتضاه يتعلم الأطفال على أفضل نحو من الأطفال الآخرين.

وتتبقى الآن كلمة إضافية أقولها لأساتذة الفلسفة. لقد وجدت نفسي دائماً مضطراً إلى الإعجاب، ليس فحسب بالحصافة والحس السليم المرهف لهؤلاء الأساتذة في إدراكهم الفوري لفلسفتي بمجرد ظهورها باعتبارها شيئاً ما مختلفاً تماماً عن محاولاتهم الفلسفية الخاصة بهم، وباعتبارها في واقع الأمر تشكل خطورة عليها، أو باعتبارها- إذا استخدمنا تعبيراً شائعاً- شيئاً ما لا يلائم بضاعتهم الرخيصة؛ بل أنني وجدت نفسي مضطراً إلى الإعجاب أيضاً بالسياسة الناجعة الماكرة التي بفضلها اكتشفوا على الفور الإجراء السليم الوحيد الذي اتخذوه إزاء فلسفتي، والإجماع التام الذي اتخذوه في تطبيقهم لهذا الإجراء، والإصرار في النهاية على أن يبقوا مخلصين له. وهذا الإجراء- الذي بالمناسبة قد تعزز مركزه أيضاً بفضل السهولة التي يمكن بها تطبيقه- إنما يقوم كلية، كما هو معروف، على التجاهل التام، ومن ثم على "الإبقاء طي الكتمان" على حد التعبير الماكر لجوته Goethe الذي يعني هنا التكتّم على كل ما يكون ذي أهمية وقيمة. ويزيد من فاعلية هذا المنهج الصامت الذي يتخذه أساتذة الفلسفة، ذلك الضجيج من الصيحات والتهنئات المتبادلة فيما بينهم احتقالاتاً بمولد أعمال فلسفية لأربابهم من الفلاسفة الذين يتفوقون معهم، على نحو يشبه تلك الصيحات والتهنئات المتبادلة لعبدة آلهة الطبيعة، وهي تلك الصيحات التي ترغم العامة على الالتفات والانتباه إلى هذه الوجوه التي ترتسم الجدية على ملامح أصحابها وهم يتبادلون التهاني. فمن ذا الذي بوسعه ألا يقر هذا المسلك؟ أياكون هناك شيء يمكن الاعتراض به على الحكمة المأثورة التي تقول: "عش أولاً، ثم تفلسف بعد ذلك" **primum vivere, deinde philosophari**. فهؤلاء الأساتذة يريدون أن يعيشوا، بل يريدون في الحقيقة أن يتعيشوا من الفلسفة. فهؤلاء يتم وقف معاشهم هم وزوجاتهم وأطفالهم على حساب الفلسفة، وعلى الرغم من قول بترارك Petrarka: "أيتها الفلسفة الرائحة الغادية فقيرة عارية" **povera e nuda vai** فإنهم راضون عن كل ما يمكن أن يأتيهم منها. غير أن فلسفتي ليست بالقطع مرتبة تماماً على ذلك النحو الذي يتيح لأي شخص أن يتعيش منها. فهي تفتقر إلى المطلب الأول اللازم للفلسفة الجامعية المتأسدة التي تكفل رواتب مجزية،

أعني اللاهوت التأملي الذي ينبغي ويلزم أن يكون الموضوع الرئيس لكل فلسفة، نكايةً في كانط المزعج بكتابه في **نقد الحكمة*** - مع أن مهمة ذلك النوع من الفلسفة هي ببساطة الكلام على الدوام عن شيء ما لا يمكن أن تعرف عنه أي شيء على الإطلاق. والواقع أن فلسفتي لا تعترف بتلك الصورة الخيالية للعقل التي ابتدعها بمهارة أساتذة الفلسفة وأصبحت شيئاً لا غنى عنه، أعني الصورة الخيالية للعقل بوصفه عقلاً يعرف ويدرك ويفهم ويعي على نحو مباشر وبشكل مطلق. وما على المرء منهم سوى أن يفرض تلك الصورة الخيالية على القارئ منذ البداية، كيما يمكنه أن يرتاد بأيسر سبل الانتقال راحة في العالم- أي يرتاد بعربة تجرها أربعة جياد- تلك المنطقة التي تتجاوز نطاق أي إمكانية للتجربة، وهي المنطقة التي جعلها كانط بكليتها وإلى الأبد منطقة مغلقة ممتعة على معرفتنا. فما يمكن أن تجده إذن في تلك المنطقة إنما هو تلك المعتقدات المتجلية مباشرة، والمنمقة على أحسن نحو، وعلى وجه التحديد تلك المعتقدات الخاصة بالمسيحية الجديدة المتفائلة المتهودة. أما فلسفتي التأملية التي تفنقر إلى هذه المتطلبات الضرورية، فلا تأخذ بعين الاعتبار ظروف الآخرين، ولا تستطيع أن تكفل لهم سبل الرزق- فإنها تجعل نجمها القطبي الهادي لها هو الحقيقة وحدها، تلك الحقيقة العارية التي لا يُنتظر منها جزءاً ولا تلقى نصيراً، بل غالباً ما يتم ملاحظتها؛ وتلك هي الوجهة التي توجهت إليها فلسفتي لا يحيد نظرها عنها يميناً أو شمالاً. فأتى يكون لمثل تلك الفلسفة شأن بتلك الجامعات العريقة التي تكفل الفلسفة الجامعية فيها الطيبات من الرزق، والتي أصبحت مثقلة بمئات الأغراض والآلاف الاعتبارات، فهي تسلك سبيلها بحذر في مسار ملتبس تتغير وجهته،

* من المعروف أن كانط في كتابه **نقد الحكمة** **على شيء** يقيم البرهان على ضرورة استبعاد القضايا التقليدية التي تبحثها الفلسفة اللاهوتية التأملية (كالبحث في حقيقة وجود الله ووجود النفس) من مجال البحث الميتافيزيقي المشروع، فالبحث في مثل هذه القضايا ينتمي عنده إلى الميتافيزيقا غير المشروعة التي تتعالى على عالم الظواهر أو عالم التجربة، أي تتجاوز حدود المعرفة العقلية الممكنة التي ينبغي أن تبقى في إطار عالم الظواهر. وهذا يعني أن مثل هذه القضايا تعد موضوعاً للتسليم أو الاعتقاد لا موضوعاً لليقين العقلي الذي يستطيع أن يقيم البرهان على حقيقة موضوعه.

حيث إنها تضع نصب أعينها دومًا: الخوف من الرب، وإرادة السلطة الحاكمة، وعقائد الكنيسة الرسمية للدولة، ورغبات الناشر، واستحسان الطلاب، ومراعاة الصداقات الطيبة مع الزملاء، ومسار السياسة السائدة، والميول الآتية للجمهور، وما إلى ذلك؟ أو لنقل: ما شأن بحثي الهادئ الجاد عن الحقيقة بذلك الجدل المدرسي الصاخب حول المنصات والكراسي، الذي تكون دوافعه السرية في صميمها أغراضًا شخصية دائمًا؟ إن هذين النوعين من الفلسفة في واقع الأمر متباينان جذريًا. ولذلك، فلا يمكن أن تجد لديّ أية إمكانية لإقامة توفيقات ومصالح مشتركة، ولا يمكن لأحد أن يجني نفعًا من ورائي، اللهم إلا التطلع إلى الحقيقة، ومن ثم فلا نفع يمكن تجده عندي أي من تلك الأحزاب الفلسفية في أيامنا هذه، لأنها جميعًا تفتقي أغراضها الخاصة. في حين أنني أقدم مجرد آراء لا تلائم أيًا من تلك الأغراض، لأنها ببساطة لم يتم تفصيلها على قد أي منها. فلو كان لفلسفتي أن تصبح ملائمة للأطروحات التي قد تصل بي لنيل درجة الأستاذية في الفلسفة، لكان من اللازم أن تبرز أزمنة أخرى مغايرة لهذا العصر. فياله من شيء رائع لو كان لمثل هذه الفلسفة- التي لا يمكن لأحد أن يتعيش منها على الإطلاق- أن تكون مبعثًا للنور والاهتمام، وتنال الاحترام! ومن ثم، كان ينبغي الاحتراس من هذه الفلسفة، فناصرها الجميع العداء على قلب رجل واحد. ولكن مثل تلك اللعبة لا يمكن ممارستها بهذه البساطة حينما يتعلق الأمر بمجادلة الأعمال الفكرية ودحضها، وعلاوة على ذلك فإن مثل هذه الأساليب في التعامل مشكوك فيها؛ بالضبط لأنها تلفت انتباه الجمهور للأمر المراد إخفاؤه، وبذلك تُفسد قراءة الجمهور لأعماله طعم التريخ الذي ناله أساتذة الفلسفة. لأن المرء الذي تذوق طعم الجدية لن يكون قادرًا بعد ذلك على تذوق الأشياء الهزيلة، لاسيما إذا كانت بطبيعتها باعثة على الملل. ولذلك فإن مذهب الصمت- الذي تم الاتفاق عليه بالإجماع- هو المذهب الوحيد الصحيح، وليس بوسعي سوى أن أسدي النصح لهؤلاء بأن يتمسكوا بهذا المذهب وأن يواصلوا العمل به، طالما أنه يحقق النتيجة المرجوة- أعني إلى أن يتبين أن التجاهل ينطوي في معناه على جهالة، وعندئذ فقط سيكون الوقت متاحًا للتخفيف من حدة لهجتهم. وفي غضون ذلك، فإنه

يكون مباحًا لكل امرئ أن يلتقط فكرة من هنا أو هناك، لأن الاستزادة بوفرة من الأفكار ليست عادة بالمهمة الثقيلة على النفس. وهكذا فإن مذهب التجاهل والصمت يمكن أن يدوم لفترة لا بأس بها، على الأقل طيلة الفترة المقدر لي أن أحيها، وبذلك سيكون هناك كثير من المكاسب قد تم الحصول عليها. وإذا تجرأ في أثناء ذلك صوت متهور بأن أراد لنفسه أن يكون مسموعًا، فإنه سرعان ما يتم حجبته بالحديث الجمهوري للأساتذة الذين يعرفون- بما لديهم من قدرة هائلة على الاستهواء- كيف يقومون بتسليية الجمهور بأشياء مختلفة تمامًا. إنني أنصح هؤلاء بالتزام أدق نوعًا ما بأسلوب الموافقة الإجماعية هذه، وأنصح بوجه خاص بمراقبة الشباب الذين يكونون متهورين أحيانًا بصورة مخيفة. ومع ذلك، فليس بوسعي أن أضمن لهؤلاء دوام هذا الإجراء الموصى به إلى الأبد، وليس بوسعي أن أكون مسؤولاً عن النتيجة النهائية التي يمكن أن تترتب عليه. وإنما لمسألة حساسة تلك المتعلقة بتوجيه الجمهور الذي يكون على وجه العموم طيبًا وطبعًا. فعلى الرغم من أننا غالبًا ما نرى دومًا أعمال كل من جورجياس Gorgias وهيبياس Hippias على القمة، وعلى الرغم من أن القاعدة العامة هي أن العبث يبلغ ذروته في كل مكان، وأنه من المستحيل أن يشق صوت الفرد طريقه ليستبين من بين أصوات الكورس من المخادعين والمخدوعين- على الرغم من ذلك كله، فإنه يظل للأعمال الأصيلة في كل العصور تأثير خاص تمامًا، صامت وبطيء ومتعاطف، فنراها- كما لو كانت بمعجزة ما- تستبين من بين الجلبة كمنطاد يرتفع محلقةً من بين الغلاف الضبابي لهذا الكوكب متجهًا إلى مناطق أكثر نقاءً. ولكنه ما أن يصل هناك، فإنه يبقى ثابتًا في موضعه، ولا يمكن لأحد بعد ذلك أن يجره إلى أسفل.

فرانكفورت، على نهر الماين، فبراير ١٨٤٤

تصدير الطبعة الثالثة

ما أيسر أن يجد العمل الحقيقي الأصيل قدمًا راسخًا في العالم، إن لم يكن أولئك الذين يكونون غير قادرين على إنتاجه قد أخذوا على عاتقهم في نفس الوقت ألا يتيحوا له الحصول على أرض يرتكز عليها. ولكم أعاق هذا الوضع وأبطأ من تأثير - إن لم يكن قد أخذ في واقع الأمر - كثيرًا من الأعمال التي يفترض أنها ذات نفع للعالم. وقد كان من نتاج هذا الوضع بالنسبة لي أنني، وإن كنت في الثلاثين من عمري عندما ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب، لم يقدر لي أن أرى هذه الطبعة الثالثة قبل بلوغي الثانية والسبعين - وعلى الرغم من ذلك، فإنني أجد عزاءً عن هذا في كلمات بترارك : أيما امرئ يمضى نهاره كله متجولاً، ليلبغ غايته عند الليل، فحسبه ذلك **Si quis tota die currens, pervenit ad vesperam, stans** (de vera sapientia, S. 140). فإن كنت قد بلغت غايتي أخيرًا، وتحقق لدي الرضا في آخر حياتي لرؤيتي بداية تأثيري، فإن ذلك على أمل أن يدوم هذا التأثير - بناءً على قاعدة قديمة مجرّبة - قدرًا أطول من قدر تأخره عن فترة بدايته.

وفي هذه الطبعة الثالثة لن يفقد القارئ شيئاً مما كان موجوداً في الطبعة الثانية، وإنما سيجد فيها زيادة ملحوظة، حيث إنه بفضل الإضافات التي أُدخِلت عليها؛ فإنها جاءت زائدة عن سابقتها بمائة وست وثلاثين صفحة، وإن جاءت على نفس شاکلة الطباعة السابقة.

لقد قمت بعد مرور سبع سنوات على ظهور الطبعة الثانية من هذا الكتاب بنشر كتابي المؤلف من جزأين بعنوان **Parerga und Paralipomena** وما يُراد فهمه من الاسم الأخير هنا، إنما يتألف من الإضافات على العرض المنهجي المنظم لفلسفتي، وهي الإضافات التي قد وجدت مكانها الصحيح في هذين الجزأين. غير أنني في ذلك الوقت كان عليّ أن أضعها في الموضع الملائم قدر المستطاع؛ حيث إنني كان لدي شك كبير فيما إذا كنت سأحيا لأرى هذه الطبعة الثالثة. ولذلك فإن هذه الإضافات يمكن أن تلمس في المجلد

الثاني من كتاب الحواشي سالف الذكر، ويمكن التعرف عليها بسهولة من العناوين
الرئيسة للفصول.

فرانكفورت، على نهر الماين

سبتمبر ١٨٥٩